إطلالة من مقديشو

حينما اخبرني مدير جامعة إفريقيا بروفيسور كمال محمد عبيد بأن هناك دعوة له ولي لحضور مؤتمر الجامعة الوطنية الصومالية – قلت له على بركة الله – وفي مطار مقديشو كان في استقبالنا عدد من خريجي جامعة إفريقيا ورهط من المسئولين وسبق دخولنا المطار حادث تفجير استهدف قوات الأمم المتحدة – ومع حزننا على الضحايا إلا أنني فرحت بالوصول لمقديشو التي خبرتها وجبت شوارعها في الثمانينات من القرن المنصرم ، حينما كنت اكتب رسالتي للدكتوراه عن السياسات الثقافية في الصومال الكبير – ثم عدت للصومال في فواتيح التسعينيات مع سقوط نظام الرئيس سياد بري ، بتكليف من حكومة السودان ، في محاولة للم الشمل الصومالي ، وكنت برفقة الوزير حينها عبدالله محمد أحمد وقلت لمستقبلي بالمطار ، حينما وصلنا لمقديشو عام 1991م كانت مقديشو مدينة اشباح ، في شبه مجاعة ، حتى أن وزير الزراعة الذي كان في استقبالنا قال لعبدالله محمد أحمد والله ياسعادة الوزير بحثت لك في مقديشو كلها قطعة موز فلم نجدها – حتى مزارع الموز احرقت في حروب الصومال وحينما ذهبنا لرئيس الجبهة الوطنية الصومالية في برعو في شمال الصومال ، وضعوا طستا على السقف حتى تنزل فيه مياه المطر ليقدموها لنا إكراما – لم يك هناك شيء – المتوفر الوحيد كان البارود والرصاص الذي لم تسلم منه حتى المساجد ، وكانت مهمة فاشلة بجدارة ، اللهم إلا من صدق نوايا حكومة السودان ، التي وفرت طائرة لنا ، ظلت تحوم مابين مدن الصومال المحترقة، برعو ، مقديشو ، وهرجيسا والتي أثبتت توجع السودان لما يحدث في الصومال ، وأن السودان الذي يخرج هو ذاته من تحت الأطلال لم ينسى الصومال .

ولكن إن لم ينجح مشروع السودان السياسي في الصومال ، إلا أن السودان ابتدر مشروعا آخر للصومال– وهو فتح أبواب الجامعات والمعاهد السودانية أمام الطلاب الصوماليين ، حتى جدت ما لايصدق آلاف الطلاب الصوماليين يتخرجون من الجامعات السودانية ويبدأوا في شروع تأسيس الحياة من جديد في الصومال ، وتأثرت في المطار بالعواطف الصادقة التي أبرزها الصوماليون وكل يقول أنا خريج هذه الجامعة أو تلك – أنا لا أنسي فضل السودان وزراء ومديري جامعات وكبار موظفين وقادة عسكريين الخ .

وقلت لهم لقد زرت عشرات الدول وبدعوات رسمية ومؤتمرات ولكن لم أر من أصدق من عواطف الترحاب التي شهدتها في مقديشو وقلت لهم إن كلماتكم تخرج من القلب – وأنّ الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وأثمرت وإن خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان .

ورغم التفجيرات ، إلا أن أرادة الحياة وبناء المستقبل هنا حاضرة وراكزة، واستعادت مقديشو التي هي كلمة فارسية تعني (مقعدشاه) ألقها وجمالها وعافيتها وحيويتها – مثلها مثل أي

عاصمة في الدنيا – أكتب هذه الكلمات من نافذة فندق الجزيرة الذي يطلب على المحيط ومن غرفتي أمامي، المطار جاثية عليه الطائرات، وهناك يمتد المحيط الهندي ، عادت مقديسو كأكبر مركز تجاري في شرق إفريقيا وسوقها سوق بكار عامر بالبضائع من كل أنحاء الدنيا وحدائق أفجوي عادت لتضخ الموز الصومالي ليس فقط في مقديشو ولكن حتى في متاجر الخليج وإيطاليا – ولكن مع ذلك فإن الفقر يضرب الصومال ، نتيجة للجفاف والحرب في السنوات الماضية ، ولكن هذا العام الأمطار طيبة والتفاؤل سيد الموقف .

ويحتاج الصومال للعون العربي والدولي هناك مئات الآلاف من النازحين واللاجئين الذين ضربهم الجفاف بضرباته ورمتهم المجاعة برمياتها ، فماتت مواشيهم وتيبست عروق أطفالهم وهذه الايام كينيا تضغط لعودة النازحين والحكومة الصومالية مابين ضغوط المجتمع الدولي بجيوشه الحاضرة وضربات حركة الشباب التي ترفض الحوار والحل السلمي ومطلوبات التنمية ولم الصف الوطني والتحرك كجماعة وطنية .

وقال وزير الداخلية نغبطكم على ما أنتم فيه من أمن ، رئيسكم يسعى في المآتم والافراح ويعيش وسط الناس ، هذا يستحيل هنا بل ويستحيل هذه الأيام في معظم أرجاء العالم .

تسعي الحكومة الصومالية للحلول السياسية ليس فقط مع حركة الشباب ولكن كذلك مع العشائر الصومالية المتنافسة والمتصارعة حول الكلأ والماء والسلطة وحركة الشباب التي لاتري في الحكومة الصومالية إلا أمتدادا للنظام الدولي بكفرانيته وعدوانيته –وأقول لهم ماذا حققت الحرب منذ الإطاحة بنظام الرئيس سياد بري غير الدمار وتوقف التعليم وإنتاج الفقر والمسغبة وتحويل الغلابة والفقراء والنازحين واللاجئين وحرمان أجيال بكاملها من التعليم – وهذه التفجيرات التي لا تفرق ما بين الرجل والمرأة والعسكري والموظف ألا تصب في خانة حرق الصومال وأضعافه. واخراجه. من. التاريخ– أجيال كاملة بلا تعليم ولا تدريب. ولا مستقبل ولا رؤية هل هذا ما يدعو إليه الإسلام . ومما يشجع أن أهل الحكم هنا مع الحوار ووحدة الجماعة الوطنية والمشاركة والقبول بالآخر ورغم وجود ثلاث حكومات صومالية (مقديشو – وارض الصومال – وبنت لاند) والمقاطعات التي تحكمها الشباب، إلا أن الجميع يؤمن بالهوية الصومالية التي قوامها لسان واحد ودين وثقافة مشتركة وإرث حضاري قوامه الرعي والزراعة وساحل بحري طويل يمتد ثلاثة آلاف من الكيلومترات ويجعل من الصومال ميناء طبيعي ممتد – ومع ذلك فإن للتيه الصومالي إيجابياته لأن الآصرة الصومالية أصبحت تمتد عبر القارات الخمس ومن تحت الإنقاض تطل القومية الصومالية والجماعة الوطنية الصومالية وعما قريب يستعيد الصومال وضعه تحدثك بذلك نهضة مقديشو المدينة الجميلة التي استعادت وضعها كعاصمة على المحيط الهندي وشرق إفريقيا ولعل اطلال المدينة القديمة ومنازلها المتصدعة وشوارعها المحفورة بالقذائف تذكر الذاكرة الصومالية بالسلام والأمن ، ومن العجائب أن الإنتحاري الذي فجر سيارته قبل وصولنا طائرتنا وقتل 12 من اخوانه

الصوماليين ودمر قاعة ك ار الزوار التي كان من المفترض أن نمر بها فقط قبل ساعتين كان سياسيا وعضوا في البرلمان السابق وشريكا في المشروع السياسي الصومالي وإذ به ينقلب عليه والضحايا صوماليين أبرياء لم يشاركوا في الحياة السياسية ولم يذوقوا ثمارها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد